

مجلة الهلال

رحيق الكتب

يوليو 2005

الكتاب: أين الخطأ

المؤلف: برنارد لويس

ترجمة: د. محمد عناني

تقديم: د. رعوف عباس

من حسن حظ قارئى هذا الكتاب الذى صدر عن جامعة أكسفورد للمتخصص فى الدراسات الإسلامية برنارد لويس أنه سيقراه ومعه نقده فى غلاف واحد!!

الكتاب ترجمة د. محمد عناني، وكتب له مقدمة دراسية د. رعوف عباس.. وهو من إصدارات سطور..

الكتاب بشكل عام يتحدث عن علاقة الشرق الإسلامى بالغرب الآخر، ويتخذ من الدولة العثمانية فى أوانها رمزاً للشرق مع ما يقابلها من نفس الفترة فى الغرب.. ومع أن تأثير الكتاب كان سيظل محدوداً بهذه الفترة التاريخية، إلا أن مصادفة صدور الكتاب بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، جعله جزءاً من حملة اليمين الأمريكى المتطرف ضد الإسلام والمسلمين والتي يقودها الرئيس الأمريكى بوش وصحبه من المستشارين فى البيت الأبيض.

وقد تأثر د. رعوف عباس بالإهتمام الكبير الذى لقيه الكتاب، وصدور العديد من المقالات التى إحتفت به، حتى إعتبره مقال جاي تولسون فى صحيفة أمريكية وصاحبه "حكيم العصر" وأشار إلى أن لويس قد استدعى إلى واشنطن ست مرات منذ حادث سبتمبر للقاءات سرية مع كبار المسؤولين فى البيت الأبيض والبنجاحون! بل ويعزو تولسون إلى لويس "فضل" التنبؤ بأحداث سبتمبر قبل عشر سنوات، فى مقال كتبه لويس بعنوان "جذور العنف الإسلامى"!!

وعلى الرغم من أن إنتقاد د. رعوف عباس للرجل يقوم على معطيات منطقية، فالرجل صهيونى، وله كتابات كثيرة تؤكد نظرتة غير الصائبة للمسلمين، إلا أن د. رعوف قد أخذ الرجل "عمال على بطل" فالكتاب لا يتجاوز فترة الدولة العثمانية، والرجل يملك وثائق فى هذه الفترة، وهو قارئ ودارس جيد، وأكثر ما يقوله فى كتابه لا يذهب بعيداً عما نقوله نحن عن أنفسنا وعن سلبياتنا.. فما باله بكتاب أجنبى يقرأ ويتابع ما نقوله وما نفعله، وهو حافل بالتخبط والتضارب؟! ولا شك فى أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد أصابتنا نحن المسلمين بموقف نلاحظه فيما نكتب ونقول، فقد إنقسم موقفنا الرسمى والفكرى إلى عنصرين متضادين تماماً!! البعض منا رأى أنه أمام هذه الهجمة الشرسة والإتهامات

العنيفة، فإنه تلزمتنا المهادنة والتنازل وطأطأة الرعوس حتى تمر الأزمة، وحتى نقنع الآخرين بأننا مسالمون طيبون وهذا واضح في الكثير من مواقفنا الرسمية وحتى من كبار رجال الدين، فقد قرأنا فتوى تعطى للفرنسيين الحق في رفضهم حجاب طالبات المدارس بإعتباره ضرورة أمنية، على الرغم من رفض كل الشيوخ وحتى العلمانيين لهذا الرفض، على الأقل في إطار الحرية الشخصية، وقرأنا فتوى أخرى رسمية تبيح إمامة المرأة وخطبتها لصلاة الجمعة – رداً على ما حدث في الولايات المتحدة، بينما أجمع كل شيوخ المسلمين وشيخاتهم على أن هذا باطل!.

هذا موقف.. الموقف الآخر كان على النقيض من ذلك، فقد رأى البعض أن ما يلقاه المسلمون من إهانات يستدعي الشدة في المواجهة، ويحتاج إلى إطار العين الحمراء.. فنحن أصحاب حق، وهم على باطل.. فارتفعت وتيرة الدعوات في بعض الندوات والمساجد إلى أن "يبيتم الله أطفالهم ويرمل نساءهم ولا يبقى منهم أحداً يا رب العالمين" وهي دعوات لم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صحابته أو التابعين في أشد مواقف المواجهة والغزوات لكن الكثيرين يأخذونها مأخذ الجد عندنا، فما بالك بغير المسلمين!. وأذكر أن مقالاً لكاتب بريطاني خلال فترة الاستعمار البريطاني لمصر، أثار الكثيرين هناك، قام على تحليل هتاف عفوى كان المتظاهرون ضد الاستعمار في مصر يرددونه وهو "يا عزيز يا عزيز.. كُبه تاخذ الإنجليز" ويحث الرجل عن معنى "الكبة" في اللغة العربية، فوجدها "الصرع"! وإندهش ما علاقة الموقف الاستعماري بالدعوة على كل سكان بريطانيا بأن يصيبهم الصرع!!

لا أريد أن أطيل.. ولكن "لا أعتقد أن أكثر ما أورده برنارد لويس من سلبيات في فترة الدولة العثمانية، يبقى مقبولاً.. وحتى لو جرجرناه لينعكس على حاضرنا، فنحن أولى بمحاولة تصحيحه في أنفسنا.. مع الإعراف بأن برنارد لويس صهيوني، وأنه بالطبع ليس حسن النية فيما يقول.. وليس من الحق أن نعلن صراع الحضارات ونرفع رايات الرفض لكل ما يقال عنا، ثم ندفن رءوسنا في الرمال، كما تفعل النعامة، مع أنه ثبت أنها لا تفعل ذلك!!